كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

النقد القديم/المرحلة الثالثة

د. جبار عبد ضاحي

المحاضرة السابعة

الألفاظ والمعاني:

Pronunciation and meanings

كان الجاحظ من أوائل من لفت الانتباه إلى البحث عن سر الإجابة في النص الأدبي هل هو في أفكار الأديب وما يدعو اليه ام في طريقة تعبيره ومدى اجادته في ابراز المعنى او الفكرة كاملة في ضميره او نقلها الى فكر السامع او بتعبير اخر هل الفضل في الاجادة الفنية عائد الى المعاني ام الى الالفاظ لقد صار راي الجاحظ في هذا الموضوع منطلقا وبداية لكل من يريد الخوض فيه حيث يقول المعاني المطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي واتما الشان في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير ولقد توهم كثير من الباحثين في فهم تصور الجاحظ هذا مكتفين بالجملة الاولى من كلامه (المعاني المطروحة)،ليستنتجوا ان الجاحظ من انصار اللالفاظ على المعاني وانه شكل في هذا مدرسة نقدية كان من اثارها ابو هلال العسكري وانه صاحب نظرية في الشكل مع انه لم يكن من الشكليين في التطبيق ومن الباحثين من يرى ان الجاحظ يربط بين الاعجاز وانه متصل بالنظم وحده بصرف النظر عما يحويه القران من معاني اذ طلب الله تعالى اليهم ان ياتوا بعشر صور من مثله في النظم والروعة في التاليف اي ان الجاحظ وقف وقفات رائعة عند الايات الكريمة منبها الى سمو معانيها وكيف عبر عنها القران الكريم بايجاز معجز واسلوب باهر والواقع ان الجاحظ لم يكن من انصار الالفاظ على المعاني ولا من الذين عنوا بالصياغة والاسلوب فحسب كما انه لم يفصل بين الالفاظ والمعاني لتحديد مفهوم المعنى عنده بل انه عنى بالنص الادبي وكل ما يحمله من معاني عبر عنها بالالفاظ والاساليب والاوزان فالنص الادبي الجيد هو ما كانت افكاره ومعانيه جيدة مقبولة النفس وكان اسلوبه جميلا مؤثرا واذا انفرد باحدى هاتين الميزتين دون الاخرى اصابه الخلل وخرج عن اطار النجاح الفني وتحدث الجاحظ عن قيمة الجمال الفني في النص ومكانة العناصر الفنية الكامنة في معانيه واسلوب صياغته فقال: فان كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة ان تشبيهه تاثير النص في نفس المستمع المتذوق للادب بتاثير المطر اذا اصاب تربة كريمة تشبيه يدلك على ادراك الجاحظ على اهمية الطبع والموهبة في عملية الابداع الفني من ناحية ويشير الى التفاتته الى نفسية المستمع الذي يجب ان يكون

مؤهلا الى فهم النص وتقديره فيلقى في نفسه قبولا واستحسانا والا فانه يكون كالتربة الميتة لا يجدي فيها هطول المطر او الغيث.

هكذا نجد خلاصة راي الجاحظ في النص الجيد بكونه يعبر عن معنى جميل شريف بالالفاظ مؤتلفة غير متنافرة واسلوب سلس موات غير متكلف وبهذا يجمع النص شروط الاجادة المتمثلة في المعاني والالفاظ والروح الادبية الفنية التي تنساب منه .

شروط الالفاظ:

نجد في ثنايا كتاب البيان والتبيين كثيرا من المصطلحات البلاغية النقدية وقد وردت كلمتا الفصاحة والبلاغة في وصف الالفاظ التي اشترطها الجاحظ للنص الجيد فقد جعل بلاغة اللفظ مقابلة لشرف المعنى وقال الجاحظ وكما لا ينبغي ان يكون عاميا او ساقطا او سوقيا وكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا وقد اكثر من التنبيه على وجوب تجنب الوحشي من الكلام او الحوشي منه لان الحوشي والحوشي يعني الغريب والشواذ والنوادر المتقاربة وهو ما نفر عن السمع ويقال له حوشي كانه منسوب الحوش وهي بقايا ابل وبار بارض قد غلبت عليه الجن فعمرتها ونفت عنها الانس لا يطأها انيس اما الفصحاحة كما عرفها النقاد والبلاغيون فهي ان يكون اللفظ جزلا ليس غريبا ولا سوقيا مبتذلا وان يكون مستقيما لا تخرج دلالته عن استعمال العرب ومن شروط الفصاحة ان تكون الكلمة مالوفة غير غريبة فاذا تعمد المتكلم ايراد الغريب فذلك هو التشادق الذي نها الرسول عنه والذين يتقصدون ايراد الغريب من الالفاظ وهم من غير الاعراب قوم مدخولون في عقولهم والفافا والقرقرة من الالفاظ الغريبة المستهجنة كما ان تجنب الغريب لا يعني استعمال السوقي فمن شروط البلاغة والفصاحة ان لا يلجا المتحدث الى السوقي من الالفاظ .

اختلاف الألفاظ بإختلاف البيئة:

ويرى الجاحظ ان المفردات اللغوية متفاوتة بتفاوت بيئات المتكلمين بها فاللغة العربية تختلف مفرداتها واساليبها باختلاف احوال المتكلمين بها فلغة البادية غير لغة الحاضرة يقول الجاحظ وكما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا وغريبا الا ان يكون المتكلم بدويا أو عربيا فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل.

ان لغة الحواضر نفسها تختلف مفرداتها تبعا لقربها من البادية منبع الفصيح العربي وتبعا لطبيعة سكانها وتركيبهم الاجتماعي ومدى اختلاطهم بغير العرب،وهنا يلفت الجاحظ انظارنا الى تفاوت لغة اهل الامصار العربية نتيجة اختلاف اصول سكانها فنجد ملامح لغوية تميز مفردات اهل البصرة والكوفة عن اهل الشام ومصر وهي غير الملامح اللغوية عند اهل مكة والمدينة وكان الجاحظ يريد القول ان اللغة لا تتاثر بالبيئة فحسب بدوية او حضرية بل تتاثر بطبيعة اهل الساكنين فيها حيث تعيش مفردات في بيئة معينة وتنحسر في بيئة اخرى وان كانت كلها عربية صحيحة.

اختلاف الأساليب بإختلاف المعاني:

أكد الجاحظ هذه الفكرة التي تنادي بان كل معنى من المعاني لا يجمل الا بالفاظ المشاكلة له فقال:

:إن سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني في بعض المعاني وربما أمتع باكثر من إمتاع الجزل والفخم من الالفاظ والشريف والكريم من المعاني".

ويحذر الجاحظ من تغير الاساليب الخاصة لموضوعاتها ومعانيها فمتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام العرب فاياك ان تحكيها الا مع اعرابها ومخارج الفاظها فانك ان غيرتها بان تلحن في اعرابها واخرجتها من مخارج المولدين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير لقد قرر الجاحظ من خلال نصوصها الكثيرة التي اوردها ان ضروب المعاني تؤدي الى اختلاف الاساليب باختلاف المعاني المستعملة والافكار التي يوردها المتحدث فلكل ضرب من الحديث ضرب مناللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماع فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل والافصاح في موضع الافصاح والكناية في موضع الكناية والجاحظ هنا لم يكتفي بوجوب مطابقة الالفاظ لضروب المعاني من حيث الخفة والغرابة والسلاسة والسماحة وانما تجاوز الالفاظ الى الاساليب بمظاهرها المختلفة فاللجوء الى الكناية والمجاز من الاساليب الواجبة في كثير من المعاني والمواقف كما ان الاطالة والايجاز تحتمهما طبيعة المعاني التي يراد التحدث عنها فتتحكم بها طبيعة المخاطبين في الوقت نفسه ومع ان الجاحظ نفسه قد ذكر ان الايجاز والاطناب اسلوبان من الاساليب التي استعملهما العرب الا انه يميل الى اسلوب الايجاز لان النفوس اذا كانت الى الطرائف احن .وبالنوادر اشغف والى اختصار الاحاديث أميل.ويوجز رأيه في تفضيل الايجاز بقوله(واحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهرة لفظه).